الومضة ٢

إشكالية «العري» وأسرار الذات

حسن جوني

منذ خمسين ألف عام من الفن التشكيلي، أي من كهوف «التميرا» و«لاسكو» إلى اليوم، والفنان يسعى إلى تأكيد قدراته الإبداعيّة، من خلا ممارسة خبراته في استعمال وسائط الرسم والتلوين والنحت، والحفر البارز والغائر، كعناصر أساسية «للتشكيل»، وبالتالي إثارة المشاهد وتحريضه على الإحساس بـ«الدهشة» التش شغلت كوامن الفنان الذاتيّة وأحساسيسه الباطنة. مستعرضاً و«الفنان» وهو أعني، أعماله الزاخرة بتأملاته الداخليّة ومهاراته بكيفيّة ربطها بالعالم الماديّ المُدركة بصريّاً، مُتّخذاً من أنضمةِ الخطوط والألوان والكتلة النحتيّة وتكويناتها بصورةٍ أساسيّة، رموزاً ودلالات تظهر لنا أهميّة ما سبق له من معاناته الروحيّة والذهنيّة ومقاصده الغريزيّة إن صحّ التعبير. لقد ضمّن نتاجه الفنيّ، خصوصيّته ـ طابعه الشخصيّ أو الأسلوب في مفهومه للتأمّل والتخيّل والتفكير ونهايةً ـ مشهديّة التعبير. بعد أن كانت شكوكه باستحالة قيامه بذلك مالئةً فضاء نفسه الداخلي.

فمن أين يولد الفن إذن؟! ومن أين تأخذ فرديّته وأصالته ظاهرها الشموليّ؟! من «القلق» الروحيّ بالتأكيد لا بل، الفن ناقل للقلق بالمفهوم الأسمى للقلق، ولكنه يجمّل أشباح

تساؤلاتنا المرتبكة، ويحوّلها إلى مُسوّغات من أحلام مرئيّة بعد أن يحمّل القلق شحنة الرمز الجماليّ.

لذا، أسهب علماء النفس، وعلى رأسهم «فرويد» ومعظم الفلاسفة المهتمّين بـ«علم الجمال» منذ فجر اليونان الفكري حتى يومنا هذا، بتفسير «الفن» كظاهرة تؤدي إلى مظاهر أهم الأنشطة الروحيّة من حيث صراع التفعيلة الروحيّة كمضمون ـ وتمظهر المضمون عبر التعامل مع المادة ليصبح الشكل الأرقى. لقد أتاحت هذه العمليّة الإبداعية لبعضهم، الغوص المعمّق في دراسة دوافع الفن... ترددات... نزعاته... بواعثه... تحولاته... أشكاله المدركة... كحالة نفسيّة بحتة، تبدأ بخصوصيّة الفنان المنغلقة على هواجسها وميوله الحادّة إلى التعبير عنها، صاهراً كل تداعيات ذاته في بوتقة التجربة، وفق أقانيم رؤيته للعالم داخلياً وخارجيّاً، وكيفيّة ترجمة كل ذلك وانعكاسه عليه وعلينا أو بالأصح منه وفينا. فمن إشكاليّة إلى معادلة ومن معادلة إلى إشكالية مغايرة ربما، أو متمّمة لما سبقها، توصّل علماء النفس، وفلاسفة علم الجمال ومن خلال تقصّي دخلية الفنان إلى إضاءة ما استتر في ظلمة نفسه، من خلال المفردة الخطّية واللونية وسائر طرز التعبير، وهو ما سُمّي لاحقاً: بالتحليل النفسي الفنيّ وإمكانية تغلغل عامل المعرفة الصعبة أحياناً. ودراسة «فرويد» للعبقري «ليونازدو فنشي» حيث أتت ترجمته لتحوّلات الفنان أمراً مدهشاً، مما شكّل لنا شاهداً على صحة ما نقول. بتحليل «فرويد» لظاهرة «ليوناردو فنشي»، تبرز الطويّة المثلى لحقيقة الفنان... محطاتها، بواعثها، نموّها، تعقيداتها، تشعّب المدّ العبقري لموهبته، استباقه للزمن، واختراقه للمستحيل. لقد عرف «فرويد» وعرّف المركّبات الأكثر غموضاً لأحلام الفنان ومن ثم «الكيفيّة» التي صاغ بها تصوّراته، وقبل ذلك، كيف استدرج أسرار الداخل إلى دائة الضوء، فدرّجها بياناً مرئياً وفق قدراته الاختبارية وما أكثرها وأغناها وصولاً إلى ما يمكن تسميته بالإنجاز المثالي للعمل الفنيّ.

هنا، نجد الفنان، وقد تحرّر من عقدة التكتّم التي اعترضت سبيل الإفصاح، خلال محاورة الظاهر والباطن، ومنها وإليها، الباطن بالظاهر، وإخراج ما لم يكن مرئيّاً إلى ما أمسى مرئيّاً، وتلك هي ذروة سلوك الفنان وأعني تماماً موقفه من جدليّة المظهر والجوهر، وقد ظهر جليّاً تعبيره المتعاظم في صميم معطيات «المادة» التشكيلية التي اختارها كمعادلةٍ فعليّة، سُمّيت فيما بعد، بخصوصيّة ده فنشي، أو

منظومته الجماليّة، وهي منذ ٥٠٠ عام ما زالت ظاهرة متظاهرة تدل على قدرته في التلخيص التجريبي لموهبته البرّاقة.

في المحصّلة الأخيرة، يمسي العمل الفنيّ، قدر الفنان المرئي إن جاز التعبير، وقد استنهض فنياً وعياً لم يكن من دونه... من دون لاوعيه مسبقاً وقد أصبح منجزاً جماليّاً أصيلاً متميزاً.

فهل من رغبات ـ غير جماليّة، أسست لمعاناة الفنان، بل، انطلقت منها عمقاً وغموضاً؟ وقد قرر لفت نظرنا إليها، بل إيقاف الزمان نفسه أمامها والزمان لا تستوقفه سوى قيم الحق والخير والجمال، وهل بالإمكان التسليم بفرضيّة «التفوّق التعبيري الذاتي» وهو ضمير شاغل ومؤثر في تطلّع الفنان وأمانيه، سيّما وقد استعرضنا ما عرضه أمامنا وهل يمكننا استبعاد «مباهاته» وقد قصد من ذلك، جذبنا المباشر وغير المباشر لإبداعه؟ والإحاطة بنا، والإسراع الملحّ في طلب إعجابنا وتسليمنا المطلق، بعبقريته المفردة، منذ حلمه بالعمل ومتخيل الحلم، ومنظور العناصر وطرائق الإنجاز؟ وماذا نسمّي تلك العمليّة البالغة التعقيد وما استجدّ من انعكاساتها وتعميم ذلك علينا، ناهيك عن أُحادية الفنان كمنتج للإبداع ودخوله في ثنائية إشراكنا بتفاعلاته، وتقديرنا للآليّة التي نهجها كي نصل جميعاً لذلك؟

أعتقد أن غايته القصوى إيجاد مرادف لإبداعه، يتمثّل بمبتغاه الحقيقيّ وهو باختصار: تألّقه في غمرة الاعتزاز الذاتيّ والشعور بالسيطرة المثاليّة المتملّكة لإحساس المتلقّي. إنه الشعور الحادّ «بالأنا» الرائعة للفنان، وإصراره على تعميم مشهديّة معاناته المفردة كما سبق وذكرت، وهذا يحمل تأويلاً جوهريّاً مؤدّاه أن الفن ظاهرة تتشابك جذورها الروحيّة ـ بالذهنية ـ والغرائزية إذا جاز لي.

وأهميّة الفنان تكمن في تنسيق التشابك وتناغماته وفق الحالة السائدة آنذاك فيمتلئ بنعمة الرضى الروحيّ والذهنيّ والغريزيّ، بغضّ النظر عن الكمّ الإبداعي في العمل، ضمن إطار هذه الرؤيا يتجلى لنا أحياناً «إحساساً ذكوريّاً» حادّاً. والأمثلة على ذلك كثيرة، فمن «عاريات» بوتشلّلي، روبنز، غويا، شيلي، مودلياني، فراغونار، بوشيه، رنوار، بيكاسو وتحديداً «دالي» الذي حرّر وجدانه كلّياً حين رسم زوجته «غالا» متحررة من ثيابها، لابسة عريها، خارجة من قيود القربى والغيرة، فراح إلى قصده مباشرة دون حرج يكبّل معطيات إبداعه وأعود إلى الفنانين الذين ذكرت

ولوحات العري، سيهيمن علينا حكماً وإن بنسب متفاوتة، شعور مُعمّم، يحرّضنا على الإقرار، بأن ما نراه ليس وهماً أراده الفنان لنا، بل هو من الحقيقة ما يكاد يجعلنا نتداخل مع شكل «العري» ومضمونه وإشاراته في حالت من الاشتهاء والاشتباه والمماثلة والظنون... وأن أنثى مّا، في لوحة مّا تنتظرنا ولا شيء يمنعنا سويّاً من نعمة الانتظار الأجمل على بوابات الحسّ الأنثوي. وكلّما أجاد الفنان عمله، تألّق ضوء الجسد وارتفع إيقاع المتعة وتسارع النبض الذكوريّ استجابة لأدقّ وأرقّ وألطف المؤثرات والتلميجات الأنثوية ـ الشبقيّة وكل ذلك يرفع فينا وتيرة الكوامن الغرائزية كردّة فعل منتظرة ومستلذّة.

نصل إلى القول، بأن في إهاب الفنان «مناخ ذكوريّ» كما هو المناخ «الأنثوي» عند المرأة الفنانة، ويتزايد المناخ عند كليهما ويتضاءل، وفق معايير الحُزمة العصبيّة لديها. فرسوم عاريات «غوغان» تدخلنا في جاذبيّة التقابل الجنسي وإحساسنا وإعجابنا بها ربما أكثر من سواها، لعلّه وأعني غوغان أعاد لنا تغلغلنا في متاهة فرديّتنا بعد أن استدرجنا إلى عجائبيّة عوالمه الغريزيّة، واستفزّنا ودفعنا إفصاحاً شكليّاً وإيضاحاً لونيّاً إلى حيث يتغلغل الجنس في الفن، والفن في الشهوة، والتأجّج الحسّي الكامل، حتى غدونا جميعاً في أقنوم واحد، الفنان واللوحة والمشاهد. وعلى إيقاع الحس، والتفاعل، والتخيّل والمشاهدة والتمنّي والاستذكار، وبأن أمراً أو تقارباً على وشك الوقوع بين اثنين... داخلين في فضاءين، فضاء العمل الفني بكل معطياته المتجسّدة من جهة، وفضاء الأحلام المفتوح على ما سيبلغنا إليه من تموّجات الحس الذكوريّ العارم. تلك هي علاقتنا اللامتناهية بالمرئي من العري المُصوَّر. ولست أدري إن كان هنالك شك بصوابيّة وجودنا داخل تلافيف الجسد الذي ومن خلاله يحررنا الفنان من قيود الوعي والإثم الأخلاقي، مقتنعين بناتج عصبهِ الغريزيّ، مقنعين بصدق أوهامنا...

أليست بعض أجمل الحقائق... وهماً... وأيّ وهم...